٦١ – باب النهي عن البخل والشح

قَالَ الله تَعَالَى: {وَأَمَا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى} [الليل: ٨ – ١١]

وقال تَعَالَى: {وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فَأولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} [التغابن: ١٦].

==========

قَالَ الله تَعَالَى (وَأَمَا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى) .

(**وَأَمَّا مَن بَخِلَ**) أي : وأما الذي بخل بما آتاه الله من المال ، فمنع حق الله فيه ، ولم يقم بما أمره الله بالقيام به .

(**وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى**) أي :كذب بالجزاء في الدار الآخرة .

فبخل بماله لسوء ظنه بالمعبود ،كما قال بعضهم : منع الموجود ، سوء ظن بالمعبود .

(**فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى**) أي للحالة العسرة، والخصال الذميمة ، بأن يكون ميسراً للشر أينما كان، ومقيضاً له أفعال المعاصي كما تقدم في الحديث (ما من يوم يصبح فيه العباد ...) .

قال بعض العلماء : أي فسنعسر عليه أسباب الخير والصلاح حتى يصعب عليه فعلها.

قال القرطبي : قال العلماء : ثبت بهذه الآية وبقوله (وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) وقوله (الذين يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بالليل والنهار سِرّاً وَعَلاَنِيَةً) إلى غير ذلك من الآيات أن الجود من مكارم الأخلاق ، والبخل من أرذلها .

قال ابن كثير : (فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى) أي: لطريق الشر، كما قال تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) والآيات في هذا المعنى كثيرة دالة على أن الله عز وجل؛ يُجازي من قصد الخير بالتوفيق له، ومن قصد الشر بالخذلان. وكل ذلك بقدر مُقدّر .

الفوائد :

١–ذم البخل .

٢–أن البخل سوء بالله وبلقائه وبوعده .

٣–أن البخل سبب لتعسير الأمور .

وقال تَعَالَى (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفسِهِ فَأولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

قال ابن كثير: أي من سلم من الشح فقد أفلح، وأنجح .

فمن أعظم أسباب الفلاح : أن يوقَ الإنسان الشح .

قال السَّعديُّ: مَن رُزِق الإيثارَ فقد وُقِيَ شُحَّ نَفسِه وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ، ووقايةُ شُحِّ النَّفسِ يَشمَلُ وقايتَها الشُّحَّ في جميعِ ما أمَر به، فإنَّه إذا وقِيَ العبدُ شُحَّ نفسِه سمَحَت نفسُه بأوامرِ اللهِ ورَسولِه، ففعَلها طائعًا منقادًا، منشَرِحًا بها صدرُه، وسمَحت نفسُه بتركِ ما نهى اللهُ عنه، وإن كان محبوبًا للنَّفسِ تدعو إليه، وتطَّلِعُ إليه، وسمَحَت نفسُه ببذلِ الأموالِ في سبيلِ اللهِ وابتغاءَ مرضاتِه، وبذلك يحصُلُ الفلاحُ والفوزُ، بخِلافِ مَن لم يُوقَ شُحَّ نفسِه، بل ابتُلِيَ بالشُّحِّ بالخيرِ، الذي هو أصلُ الشَّرِّ ومادَّتُه ، ولهذا رؤي عبدالرحمن بن عوف ﷺ . وهو يطوف بالبيت . ويقول: رب قني شح نفسي! رب قني شح نفسي! لا يزيد على ذلك، فقيل له في هذا؟ فقال: إذا وقيت شح نفسي لم أسرق، ولم أزنِ، ولم أفعل .

الفوائد :

١–من أعظم أسباب الفلاح أن يوق الإنسان الشح .

٢–ذم الشح .

٣-الحث على الكرم والإنفاق .

٥٦٢ – وعن جابر ﷺ: أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ (اتَّقُوا الظُّلْمَ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ. وَاتَّقُوا الشُّحَّ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ) رواه مسلم.

==========

الحديث تقدم شرحه :

(**الظّلم**) الظلم : وضع الشيء في غير موضعه المختصّ به، إمّا بنقصان أو بزيادة، وإمّا بعُدولٍ عن وقته أو مكانه .

١-الحديث دليل على الترهيب الشديد من الظلم .

قال ابن علان -رحمه الله- (اتقوا الظلم) أي: اتخذوا لكم وقاية منه بالقِسط..

وقال ابن علان -رحمه الله- أيضًا: أي: اجتنبوا ظلم العباد، ومنهم النفس، وظلمها: بمنعها حقّها، أو إعانتها على معصية الله، وإطاعتها فيها .

وقال المناوي -رحمه الله- (اتقوا الظلم) الذي هو مجاوزة الحدِّ والتعدي على الخلق...؛ وذلك لأن الشرائع تَطابَقت على قُبحه، واتفقت جميع الْمِلَل على رعاية حفظ الأنفس، فالأنساب، فالأعراض، فالعقول، فالأموال، والظلم يقع في هذه أو في بعضها، وأعلاه الشرك (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) وهو المراد بالظلم في أكثر الآيات (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) ويدخل فيه ظلم الإنسان لنفسه بارتكاب المعاصي؛ إذ العُصاة ظُلَّام أنفسهم، وأقبح أنواعه :ظُلم مَن ليس له ناصرٌ إلا الله.

وقال ابن الجوزي -رحمه الله- اعلم أن الظلم يشتمل على معصيتين عظيمتين:

إحداهما: أخذ مال الغير بغير حق.

والثانية: مبارزة الآمر بالعدل بالمخالفة، وهذه المعصية فيه أدهى؛ لأنه لا يكاد يقع الظلم إلا للضعيف الذي لا يقدر على الانتصار إلا بالله -عز وجل-، وإنما ينشأ الظلم من ظُلْمَةِ القلب، ولو استنار بنور الهدى لنَظَر في العواقب، فإذا سعى المتَّقون بنورهم الذي اكتسبوه في الدنيا من التقوى ظهرت ظلمات الظالم فاكْتَنَفَتْهُ .

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- (اتقوا الظلم) أي: احذروه، واتخذوا وقاية منه، وابتعدوا عنه.

والظلم: هو العدوان على الغير، وأعظم الظلم وأشدّه: الإشراك بالله -عز وجل-، قال الله تعالى (إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) ويشمل الظلم: ظلم العباد، وهو نوعان: ظلم بتَرْك الواجب لهم، وظلم بالعدوان عليهم بأخذٍ، أو بانتهاك حرماتهم .

٢-قوله (**الظلم ظلمات**) .

قال القاضي عياض -رحمه الله- قوله (الظلم ظلمات يوم القيامة) قيل: ظاهره أنه ظلمات على صاحبه حتى لا يهتدي يوم القيامة سبيلًا، حيث يسعى نور المؤمنين بين أيديهم وبأيمانهم.

وقد تكون الظلمات هنا: الشدائد، وبه فَسَّروا قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} الأنعام: ٦٣، أي: شدائدهما.

وقد تكون الظلمات هاهنا عبارة عن الأنكال والعقوبات عليه .

وقال ابن هبيرة -رحمه الله- في هذا الحديث من الفقه: أن الظلم إنما كان من عدم نور الظالم وإبصاره الأشياء كما هي، فإنه لو نَظَرَ بعين بصيرته إلى أنه عن قليل يخرج عما ظلم فيه إلى مقر آخر يجده المظلوم فيه فردًا لا يُحال بينه وبينه؛ لكان قد امتنع أن

يظلم صاحبه، فلما لم ينْتهِ عن ظلم أخيه كان ذلك على مثل ظُلْمة الليل المتصل من دنياه إلى أُخراه، وليس له هناك ما يجلو عن شيء من الظُّلمة، فكان متنقلًا من ظُلْمة إلى ظُلْمة، والنار مُظْلِمة سوداء.

وقال المناوي -رحمه الله- (فإن الظلم) في الدنيا (ظلمات) على أصحابه في الدنيا، بمعنى أنه يُورث ظُلْمةً في القلب، فيصير صاحبه في ظلمات «يوم القيامة»، فلا يهتدي بسببه يومَ يسعى نور المؤمنين بين أيديهم، فالظُّلْمَة حسيَّة، وقيل: هي معنوية، شبَّهَ الضلال بالظُّلمة كما تُشَبَّه الهداية بالنور.

وقال ابن حجر الهيتمي -رحمه الله- (ظلمات) على فاعله (يوم القيامة) لأنه حسي، تحته أنواع مختلفة، ويلزم من اختلافها اختلاف مسبباتها من الشدائد التي يقاسيها الظالم ذلك اليوم، منها: هول الموقف، والحساب، والميزان، والمرور على الصراط، وأنواع عقابها في النار .

وقال القرطبي -رحمه الله- قوله (فإنَّ الظلم ظلمات يوم القيامة) ظاهره: أنَّ الظالم يُعاقَبُ يوم القيامة؛ بأن يكون في ظلمات متوالية، يوم يكون المؤمنون في نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، حين (يَقُولُ المُنَافِقُونَ وَالمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقتَبِس مِن نُورِكُم) فيقال لهم: (ارجِعُوا وَرَاءَكُم فَالتَمِسُوا نُورًا)

وقيل: إن معنى الظلمات هنا: الشدائد والأهوال التي يكونون فيها، كما فُسِّر بذلك قوله (قُل مَن يُنَجِّيكُم مِن ظُلُمَاتِ البَرِّ وَالبَحرِ) أي: من شدائدهما، وآفاتهما. والأول أظهر.

وقال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله- يكون على صاحبه والعياذ بالله ظلمات بحسب الظُّلْم الذي وقع منه؛ الكبير ظُلُماته كبيرة، والكثير ظُلُماته كثيرة، وكل شيء بحسَبِه، قال تعالى (وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ) .

وفي هذا دليلٌ على أن الظلم من كبائر الذنوب؛ لأنه لا وعيد إلا على كبيرة من كبائر الذنوب، فظُلْمُ العباد، وظُلم الخالق -عز وجل- رَبِّ العباد؛ كله من كبائر الذنوب .

٣-الحديث دليل على التحذير من الشح والبخل .

لقوله (واتقوا الشّح) .

قال الطيبي -رحمه الله- عَطَفَ الشّحَّ الذي هو نوع من أنواع الظُّلم على الظُّلم؛ ليُشعر أن الشّح أعظم أنواعه؛ لأنه من نتيجة حبِّ الدنيا وشهواتها..

وقال الملا علي القاري -رحمه الله- وأَفْرَد الشّحَّ بالذكر تنبيهًا على أنه أعظم أنواع الظلم، فإنه مَنْشَأُ المفاسد العظيمة، ونتيجة محبة الدنيا الذميمة.

وقال المناوي -رحمه الله- أيضًا ومن السياق عُرف أن مقصود الحديث بالذات ذكْر الشُّح، وذِكْر الظلم توطئة وتمهيدًا لذكْرِه، وأبرزه في هذا التركيب إيذانًا بشدة قبح الشح، وأنه يُفضي بصاحبه إلى أفظع المفاسد؛ حيث جعله حاملًا على سفك الدماء الذي هو أعظم الأفعال الذميمة، وأخبث العواقب الوخيمة (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

قال بعض العارفين: الشح مسابقةُ قَدَرِ الله، ومَن سابَق قَدَر الله سبَق، ومُغَالَبة لله، ومَن غالَبَ الحقَّ غُلِبَ؛ وذلك لأن الحريص يريد أن ينال ما لم يُقدَّر له، فعقوبته في الدنيا الحرمان، وفي الآخرة الخسران .

وقال الصنعاني -رحمه الله- قوله: (فإنه أَهْلَكَ مَن كان قبلكم) يحتمل: أنه يريد الهلاك الدنيوي المفسَّر بما بعده في تمام الحديث، وهو قوله: «حَمَلَهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم» وهذا هلاك دنيوي، والحامل لهم هو شُحُّهم على حفظ المال

وجَمْعِه، وازديادِه وصيانته عن ذهابه في النفقات، فضَمُّوا إليه مال الغير؛ صيانة له، ولا يُدرَكُ مالُ الغير إلا بالحرب، والغَضَبِيَّة المُفْضِية إلى القتل، واستحلال المحارم.

ويحتمل: أن يراد به الهلاك الأخروي، فإنه يتفرَّع عما اقترفوه من ارتكاب هذه المظالم، والظاهر حمله على الأمرين

٤-مباحث البخل والشح :

فائدة : ١

تعريف البخل والشح :

قيل: إنَّ الشُّحَّ هو البُخلُ مع زيادةِ الحِرصِ .

وهو ما رجَّحه القُرطبيُّ، فقال: وقيل: إنَّ الشُّحَّ هو البُخلُ مع حِرصٍ. وهو الصَّحيحُ .

لِما رواه مُسلِمٌ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال (اتَّقوا الظُّلمَ؛ فإنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ، واتَّقوا الشُّحَّ؛ فإنَّ الشُّحَّ أهلَك مَن كان قَبلَكم؛ حمَلَهم على أنْ سَفَكوا دِماءَهم، واستحَلُّوا محارِمَهم) .

ويرى ابنُ القَيِّمِ أنَّ الفَرْقَ بَيْنَ الشُّحِّ والبُخلِ: أنَّ الشُّحَّ هو شِدَّةُ الحِرصِ على الشَّيءِ، والإحفاءُ في طلَبِه، والاستقصاءُ في تحصيلِه، وجَشَعُ النَّفسِ عليه، والبُخلُ: منعُ إنفاقِه بعدَ حُصولِه، وحُبُّه وإمساكُه، فهو شحيحٌ قبلَ حُصولِه، بخيلٌ بعدَ حُصولِه؛ فالبُخلُ ثَمَرةُ الشُّحِّ، والشُّحُّ يدعو إلى البُخلِ، والشُّحُّ كامِنٌ في النَّفسِ، فمَن بَخِل فقد أطاع شُحَّه، ومَن لم يبخَلْ فقد عصى شُحَّه ووُقِيَ شَرَّه، وذلك هو المفلِحُ: وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ .

وقال الرازي: الشح هو البخل مع حرص .

وقال النَّوويُّ: الشُّحُّ: هو البُخلُ بأداءِ الحقوقِ، والحِرصُ على ما ليس لها .

وقال الطَّبَريُّ: الشُّحُّ: الإفراطُ في الحِرصِ على الشَّيءِ .

فائدة : ٢

عواقب الشح والبخل :

أولاً: أنه سبب لتعسير أموره.

قال تعالى (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى).

ثانياً: أنه من صفات المنافقين.

قال تعالى (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ).

ثالثاً: أن الله لا يحب الله من يبخل.

قال تعالى (لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ).

رابعاً: أن من وقي شح نفسه فقد أفلح.

فقال تعالى (وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ).

خامساً: أن من بخل فقد على نفسه.

قال تعالى (فمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ).

سادساً: وهو من صفات أهل النار.

قال ﷺ (إن أهل النار كل جعظري جواظ مستكبر جماع مناع) رواه أحمد.

سابعاً: وهو شر ما في الرجل.

قال ﷺ (شر ما في رجل شح هالع وجبن خالع) رواه أحمد.

ثامناً: استعاذ النبي ﷺ منه.

عن أَنَس بْن مَالِكٍ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ وَالْبُخْلِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ) رواه مسلم.

وعَنْ زَيْد بْن أَرْقَم قَالَ (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِى تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاَهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لاَ يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لاَ يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لاَ تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لاَ يُسْتَجَابُ لَهَا) رواه مسلم.

تاسعاً: سماه النبي ﷺ داء.

قال رسول الله ﷺ (من سيدكم يا بني سلمة؟ قلنا: جدُّ بن قيس إلا أنا نُبخِّله، قال: وأي داءٍ أدْوأ من البخل؟ بل سيدكم عمرو بن الجموح) رواه البخاري في الأدب المفرد.

قال المُناويُّ: أيُّ عَيبٍ أقبَحُ منه؛ لأنَّ من تَرَك الإنفاقَ خَوفَ الإملاقِ لم يُصَدِّقِ الشَّارِعَ، فهو داءٌ مُؤلِمٌ لصاحِبِه في الآخِرةِ، وإن لم يكُنْ مؤلِمًا في الدُّنيا .

عاشراً: الملائكة تدعو على الممسك.

قال ﷺ (ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً) متفق عليه.

الحادي عشر: هو من تصديق الشيطان.

قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً).

الثاني عشر: هو سبب للظلم.

قال ﷺ (اتقوا الظلم ... واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) متفق عليه.

الثالث عشر: بُعْد النبي ﷺ عن البخل.

قال ﷺ (... ثم لا تجدوني بخيلاً ولا كذوباً ولا جباناً). رواه البخاري

ولمسلم: (... فلست ببخيل).

الرابع عشر: سبب لضيق الصدر.

عَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ قَالَ (ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَثَلَ الْبَخِيلِ وَالْمُتَصَدِّقِ كَمَثَلِ رَجُلَيْنِ عَلَيْهِمَا جُنَّتَانِ مِنْ حَدِيدٍ قَدِ اضْطُرَّتْ أَيْدِيهِمَا إِلَى ثُدَيِّهِمَا وَتَرَاقِيهِمَا فَجَعَلَ الْمُتَصَدِّقُ كُلَّمَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ انْبَسَطَتْ عَنْهُ حَتَّى تُغَشِّىَ أَنَامِلَهُ وَتَعْفُو أَثَرَهُ وَجَعَلَ الْبَخِيلُ كُلَّمَا هَمَّ بِصَدَقَةٍ قَلَصَتْ وَأَخَذَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا». قَالَ فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – يَقُولُ بِإِصْبَعِهِ فِي جَيْبِهِ فَلَوْ رَأَيْتَهُ يُوَسِّعُهَا وَلاَ تَوَسَّعُ) رواه مسلم.

قال ابن القيم تعليقاً على هذا الحديث: ولما كان البخيل محبوساً عن الإحسان ممنوعاً عن البر والخير وكان جزاؤه من جنس عمله، فهو ضيق الصدر ممنوع من الانشراح ضيق العطن صغير النفس قليل الفرح كثير الهم والغم والحزن لا يكاد تقضى له حاجة ولا يعان على مطلوب، فهو كرجل عليه جبة من حديد قد جمعت يداه إلى عنقه بحيث لا يتمكن من إخراجها ولا حركتها، وكلما أراد إخراجها أو توسيع تلك الجبة لزمت كل حلقة من حلقها موضعها، وهكذا البخيل كلما أراد أن يتصدق منعه بخله فبقي قلبه في سجنه كما هو.

الخامس عشر: منعُ فضل الله تعالى عن البخيل:

فعن أَسْمَاء ابْنَة أَبِي بَكْرٍ رضي الله عنهما قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لِي شَيْءٌ إِلَّا مَا يُدْخِلُ عَلَيَّ الزُّبَيْرُ، أَفَأُنْفِقُ مِنْهُ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : أَعطي وَلَا تُوكِي، فَيُوكِيَ عَلَيْكِ) .

أي: لا تدَّخِري وتمنعي فضلَ الزاد عمَّن افتقر إليه، فيمنعُ اللهُ عنكِ فضله، ويسدُّ عليك بابَ المزيد، وهو إعلام بأنَّ الإنفاق سببٌ للإخلاف والتعويض، والإمساك سبب للمنع .

السادس عشر: الشح مهلك .

قال ﷺ (... أما المهلكات: فشحٌ مطاع، وهوىً متبع، وإعجاب المرء بنفسه) رواه أحمد.

فائدة : ٣

من أقوال السلف في ذم البخل .

من كلام الحكماء: الرزق مقسوم، والحريص محروم، والحسود مغموم، والبخيل مذموم.

وقال علي ﷺ: البخل جلباب المسكنة، وربما دخل السخي بسخائه الجنة.

وقال ابن عبد البر: أجمعت الحكماء على أربع كلمات: وهي لا تحمل قلبك ما لا يطيق، ولا تعمل عملاً ليس لك فيه منفعة، ولا تثقن بامرأة، ولا تغتر بمال وإن كثر.

وقال الماوردي: قد يحدث عن البخل من الأخلاق المذمومة- وإن كان ذريعة إلى كل مذمة- أربعة أخلاق ناهيك بها ذماً، وهي: الحرص، والشره، وسوء الظن، ومنع الحقوق، وإذ آل البخيل إلى ما وصفنا من هذه الأخلاق المذمومة والشيم اللئيمة لم يبق معه خير موجود ولا صلاح مأمول. (أدب الدنيا والدين).

وقال محمد بن المنكدر: كان يقال: إذا أراد الله بقومٍ شراً أمَّر عليهم شرارهم وجعل أرزاقهم بأيدي بخلائهم.

وقال بعض الحكماء: البخيل ليس له خليل.

وقال آخر: البخيل حارس نعمته وخازن ورثته.

وقال يحيى بن معاذ: ما في القلب للأسخياء إلا حب ولو كانوا فجاراً، وللبخلاء إلا بغض ولو كانوا أبراراً.

قال حبيش بن مبشر الثقفي الفقيه: قعدت مع أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، والناس متوافرون فأجمعوا أنهم لا يعرفون رجلًا صالحًا بخيلاً.

قال بشر بن الحارث: النظر إلى البخيل يقسي القلب.

قال ابنُ عباس: الْبُخْلُ وَالْجُبْنُ وَالْحِرْصُ، غَرَائِزُ سُوءٍ يَجْمَعُهَا كُلَّهَا سُوءُ الظَّنِّ بِالله عَزَّ وَجَل.

وقالت العرب: الكرم فضيلة والبخل رذيلة.

وقال طلحة بن عبيد الله ﷺ: إنا لنجد بأموالنا ما يجد البخلاء؛ لكننا نتصبر.

وقال الجاحظ: وهذا الخُلق مكروه من جميع النّاس، إلّا أنّه منَ النّساء أقلُّ كراهيَّة، بل قد يستحبّ من النّساء البخل، فأمّا سائر النّاس فإنّ البخل يشينهم، وخاصَّة الملوك والعظماء، فإنّ البخل أُبغض منهم أكثر ممّا هو أُبغض من الرّعيّة والعوامّ، ويقدح في ملكهم؛ لأنّه يقطع الأطماع منهم ويبغّضهم إلى رعيّتهم.

وقال أبو حنيفة: لا أرى أن أُعدِّل بخيلًا؛ لأنَّ البخل يحمله على الاستقصاء؛ فيأخذ فوق حقه خيفة من أن يغبن، فمن كان هكذا لا يكون مأمون الأمانة.

قال ابن تيمية: وَلَمَّا كَانَ صَلَاحُ بَنِي آدَمَ لَا يَتِمُّ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ إلَّا بِالشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ: بَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ تَوَلَّى عَنْ الْجِهَادِ بِنَفْسِهِ أَبْدَلَ اللَّهُ بِهِ مَنْ يَقُومُ بِذَلِكَ.

قال ابن عبد البر في ترجمة أبي الأسود الدؤلي : كان ذا عقل ودين ولسان وبيان ... غير أنه كان ينسب إلى البخل ، وهو داء دوي يقدح في المروءة .

وقال ابن القيم : البخيل فقير لا يؤجر على فقره .

فائدة : ٤

من أعظم أسباب ذم البخل أنه تصديق للشيطان وتكذيب لوعد الله .

قال تعالى (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيم).

قال ابن القيم : ... فأخبر سبحانه أن الذي يدعوهم إلى البخل والشح هو الشيطان، وأخبر أن دعوته هي بما يعدهم به ويخوفهم من الفقر إن أنفقوا أموالهم، وهذا هو الداعي الغالب على الخلق، فإنه يهم بالصدقة والبذل فيجد في قلبه داعياً يقول له متى أخرجت هذا دعتك الحاجة إليه وافتقرت إليه بعد إخراجه وإمساكه خير لك حتى لا تبقى مثل الفقير، فغناك خير لك من غناه، فإذا صور له هذه الصورة أمره بالفحشاء وهي البخل الذي هو من أقبح الفواحش وهذا إجماع من المفسرين أن الفحشاء هنا البخل، فهذا وعده وهذا أمره وهو الكاذب في وعده الغار الفاجر في أمره، فالمستجيب لدعوته مغرور مخدوع مغبون ... وإن وعده له الفقر ليس شفقة عليه ولا نصيحة له كما ينصح الرجل أخاه ولا محبة في بقائه غنياً بل لا شيء أحب إليه من فقره وحاجته، وإنما وعده له بالفقر وأمره إياه بالبخل ليسيء ظنه بربه، ويترك ما يحبه من الإنفاق لوجهه، فيستوجب منه الحرمان .

وأما الله سبحانه : فإنه يعد عبده مغفرة منه لذنوبه وفضلاً بأن يخلف عليه أكثر مما أنفق وأضعافه، إما في الدنيا أو في الدنيا والآخرة، فهذا وعد الله وذاك وعد الشيطان فلينظر البخيل والمنفق أي الوعدين هو أوثق وإلى أيهما يطمئن قلبه وتسكن نفسه والله يوفق من يشاء ويخذل من يشاء وهو الواسع العليم.

فائدة : ٥

قال السعدي : (وأحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ) أي: جُبِلت النُّفوسُ على الشُّحِّ، وهو: عدَمُ الرَّغبةِ في بذلِ ما على الإنسانِ، والحِرصُ على الحَقِّ الذي له؛ فالنُّفوسُ مجبولةٌ على ذلك طبعًا، أي: فينبغي لكم أن تحرِصوا على قَلعِ هذا الخُلُقِ الدَّنِيءِ من نفوسِكم، وتستبدِلوا به ضِدَّه، وهو السَّماحةُ، وهو بَذلُ الحَقِّ الذي عليك، والاقتناعُ ببعضِ الحَقِّ الذي لك، فمتى وُفِّق الإنسانُ لهذا الخُلُقِ الحسَنِ سَهُل حينئذٍ عليه الصُّلحُ بَينَه وبينَ خَصمِه ومُعامِلِه، وتسهَّلت الطَّريقُ للوصولِ إلى المطلوبِ، بخلافِ مَن لم يجتَهِدْ في إزالةِ الشُّحِّ من نفسِه؛ فإنَّه يَعسُرُ عليه الصُّلحُ والموافقةُ؛ لأنَّه لا يُرضيه إلَّا جميعُ مالِه، ولا يرضى أن يؤدِّيَ ما عليه، فإن كان خَصمُه مثلَه اشتَدَّ الأمرُ) .

فائدة : ٦

من الصفات المذمومة التي ذمها الله ورسوله البخل .

قَالَ تَعَالَى (وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ).

قال السعدي رحمه الله: أي: ولا يظن الذين يبخلون أي: يمنعون ما عندهم مما أتاهم الله من فضله من المال، والجاه، والعلم.. وغير ذلك مما منحهم الله وأحسن إليهم به وأمرهم ببذل ما لا يضرهم منه لعباده، فبخلوا بذلك وأمسكوه وضنوا به على عباد الله، وظنوا أنه خير لهم بل هو شر لهم في دينهم، ودنياهم، وعاجلهم، وآجلهم .

فائدة : ٧

في آخر الزمان يلقى الشح .

عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه، عن النَّبيِّ ﷺ قال (يتقارَبُ الزَّمانُ ، ويَنقُصُ العَمَلُ ، ويُلقى الشُّحُّ، وتظهَرُ الفِتَنُ، ويَكثُرُ الهَرْجُ. قالوا: يا رسولَ اللهِ، أيُّهم هو ؟ قال: القَتلُ القَتلُ) .

قال ابنُ حَجَرٍ: أمَّا قولُه: ويُلقى الشُّحُّ. فالمرادُ إلقاؤه في قُلوبِ النَّاسِ على اختلافِ أحوالِهم؛ حتى يبخَلَ العالِمُ بعِلمِه، فيَترُكَ التَّعليمَ والفتوى، ويَبخَلَ الصَّانعُ بصناعتِه حتى يترُكَ تعليمَ غيرِه، ويبخَلَ الغنيُّ بمالِه حتى يَهلِكَ الفقيرُ، وليس المرادُ وجودَ أصلِ الشُّحِّ؛ لأنَّه لم يَزَلْ موجودًا .

وقال ابنُ الجوزيِّ: قولُه (يُلقى الشُّحُّ) على وجهَينِ:

أحَدُهما: يُلقى من القُلوبِ، يدُلُّ عليه قولُه: ويَفيضُ المالُ.

والثَّاني: يُلقى في القُلوبِ، فيُوضَعُ في قَلبِ من لا شُحَّ عِندَه، ويزيدُ في قلبِ الشَّحيحِ. ووجهُ هذا أنَّ الحديثَ خارِجٌ مخرَجَ الذَّمِّ؛ فوقوعُ الشُّحِّ في القلوبِ مع كثرةِ المالِ أبلَغُ في الذَّمِّ .

فائدة : ٨

قال ابن تيمية : ولما كان صلاح بني آدم لا يتم في دينهم ودنياهم إلا بالشجاعة، والكرم، بين الله سبحانه أنه من تولى عنه بترك الجهاد بنفسه أبدل الله به من يقوم بذلك، ومن تولى عنه بإنفاق ماله أبدل الله به من يقوم بذلك، فقال (هَاأَنتُمْ هَؤُلاَء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُم) .

فائدة : ٩

لماذا الشيطان يخوف الإنسان من الفقر ؟

لأمور:

أولاً: ليُمسك عن الصدقة فيحرمه أجرها وثوابها العظيم .

ثانياً: ليصيبه بالقلق والحزن .

ثالثاً: ليشك بوعد الله: وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه .

رابعاً: ليقدم على أكل الحرام خوفاً من الفقر كما قال تعالى (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين).

خامساً: ليسيء الظن بالله تعالى .

سادساً: ينشغل بجمع المال عن الطاعات والأعمال الصالحات.

قال الثوري: ليس للشيطان سلاح على الإنسان مثل خوف الفقر، فإنه إذا وقع في قلبه الفقر منع الحق، وتكلم بالهوى، وظن بربه ظن السوء.

قال بعض السلف: إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاثة أشياء:

فائدة : ١٠

أفضل وقت للصدقة: وقت الصحة والقوة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ (أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ فَقَالَ: أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى وَلاَ تُمْهِلْ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ لِفُلاَنٍ كَذَا وَلِفُلاَنٍ كَذَا أَلاَ وَقَدْ كَانَ لِفُلاَنَ) متفق عليه.

قال العلماء: وإنما خص هاتين الحالتين، وهما أمل الغنى، وخشية الفقر، لأن الصدقة في هاتين الحالتين أشد مراغمة للنفس.

ولأنه في حال الصحة يصعب عليه إخراج المال غالباً لما يخوّفه به الشيطان، ويُزين له، من إمكان طول العمر، والحاجة إلى المال.

قال النووي رحمه الله: قَالَ الخطابي: فَمَعْنَى الْحَدِيث أَنَّ الشُّحّ غَالِب فِي حَال الصِّحَّة، فَإِذَا شَحّ فِيهَا وَتَصَدَّقَ كَانَ أَصْدَقَ فِي نِيَّته وَأَعْظَم لأَجْرِهِ، بِخِلَافِ مَنْ أَشْرَفَ عَلَى الْمَوْت وَآيَسَ مِنْ الْحَيَاة وَرَأَى مَصِير الْمَال لِغَيْرِهِ فَإِنَّ صَدَقَته حِينَئِذٍ نَاقِصَة بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَالَة الصِّحَّة، وَالشُّحّ رَجَاء الْبَقَاء وَخَوْف الْفَقْر .. فَلَيْسَ لَهُ فِي وَصِيَّته كَبِير ثَوَاب بِالنِّسْبَةِ إِلَى صَدَقَة الصَّحِيح الشَّحِيح.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وَفِي الْحَدِيث أَنَّ تَنْجِيز وَفَاء الدَّيْن وَالتَّصَدُّق فِي الْحَيَاة وَفِي الصِّحَّة أَفْضَل مِنْهُ بَعْد الْمَوْت وَفِي الْمَرَض، وَأَشَارَ ﷺ إِلَى ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: "وَأَنْتَ صَحِيح حَرِيص تَأْمُل الْغِنَى الخ" لأَنَّهُ فِي حَال الصِّحَّة يَصْعُب عَلَيْهِ إِخْرَاج الْمَال غَالِبًا لِمَا يُخَوِّفهُ بِهِ الشَّيْطَان وَيُزَيِّن لَهُ مِنْ إِمْكَان طُول الْعُمْر وَالْحَاجَة إِلَى الْمَال كَمَا قَالَ تَعَالَى (الشَّيْطَان يَعِدكُمْ الْفَقْر) الآيَة.

وَأَخْرَجَ التِّرْمِذِيّ بِإِسْنَادٍ حَسَن وَصَحَّحَهُ اِبْن حِبَّانَ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاء مَرْفُوعًا قَالَ: "مَثَل الَّذِي يُعْتِق وَيَتَصَدَّق عِنْد مَوْته مِثْل الَّذِي يُهْدِي إِذَا شَبِعَ" وَهُوَ يَرْجِع إِلَى مَعْنَى حَدِيث الْبَاب.

وَرَوَى أَبُو دَاوُدَ وَصَحَّحَهُ اِبْن حِبَّانَ مِنْ حَدِيث أَبِي سَعِيد الْخُدْرِيّ مَرْفُوعًا " لأَنْ يَتَصَدَّق الرَّجُل فِي حَيَاته وَصِحَّته بِدِرْهَمٍ خَيْر لَهُ مِنْ أَنْ يَتَصَدَّق عِنْد مَوْته بِمِائَة.